

تعليق على كتاب

ضمير أمريكي: قصة راينهولد نيبور

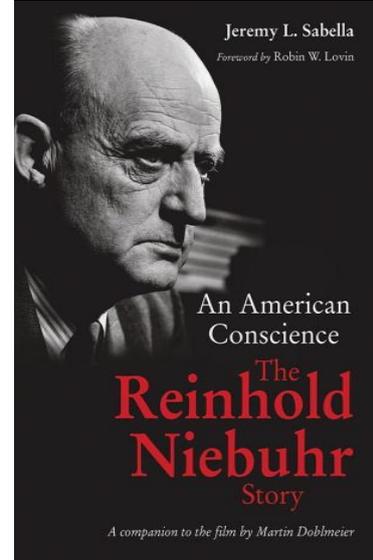
بقلم: جيريمي ل. سابلا

الناشر:

William B. Eerdmans

Publishing Company, Grand Rapids, MI, ٢٠١٧، ١٥٥ صفحة

في ١ أبريل/نيسان ٢٠١٧، عَرَضَتْ محطة ميريلاند التلفزيونية العامة Maryland Public Television فيلمًا وثائقيًا عن راينهولد نيبور Reinhold Niebuhr (١٨٩٢-١٩٧١)، وهو أحد علماء اللاهوت العظماء في أمريكا. والفيلم الوثائقي، الذي أنتجته شركة الإنتاج السينمائي جيرني فيلمز Journey Films وأخرجه مارتن دوبلمير Martin Doblmeier. جاء نتيجة بحث دقيق واشتمل على مقابلات مع القادة السياسيين جيمي كارتر Jimmy Carter، وأندرو يونج Andrew Young، والمُعلق العام ديفيد بروكس David Brooks، ومجموعة كبيرة من الأكاديميين البارزين، منهم كورنيل وست Cornel West، وستاني هاورواس Stanley Hauerwas، وجيريمي ل. سابلا Jeremy L. Sabella الذي نال مؤخرًا درجة الدكتوراه من كلية بوسطن عن



رسالته في الواقعية المسيحية عند نيبور Niebuhr's Christian realism. وقد كتب سابلا الكتاب المصاحب للفيلم الوثائقي الذي يحمل نفس الاسم، "ضمير أمريكي: قصة راينهولد نيبور" *An American Conscience: The Reinhold Niebuhr Story*. كما كتب سابلا، الذي يعمل الآن أستاذًا للدين في جامعة فيرفيلد Fairfield University، في ولاية كونيتيكت، مقدمةً مدروسة وموجزة ركزت بشكل عام على حياة وفكر نيبور.

رغم أن نيبور كان أكاديميًا ذا تأثير بالغ، إلا أن أعلى درجة حصل عليها كانت ماجستير الآداب في اللاهوت عام ١٩١٥ من كلية ييل اللاهوتية Yale Divinity School ثم خدم راعيًا لكنيسة بيت إيل الإنجيلية Bethel Evangelical Church في مدينة ديترويت، بولاية ميشيغان، حتى عام ١٩٢٨. وبقيت حياته المهنية حتى تقاعده في عام ١٩٦٠، كان أستاذًا للأخلاق في كلية الاتحاد اللاهوتية Union Theological Seminary، وهي معهد أكاديمي راقٍ قَدَّمَ من خلاله واحدًا وعشرين كتابًا وأكثر من ٢٦٠٠ مقالة. وتشمل بعض لُكُتبه أكثر النصوص اللاهوتية التي لا تُنسى في القرن العشرين: "الإنسان الأخلاقي والمجتمع للأخلاقي" *Moral Man and Immoral Society* (١٩٣٢)، "طبيعة ومصير الإنسان" المجلدان الأول والثاني، *The Nature and Destiny of Man* Volumes I and II (١٩٤١، ١٩٤٣)، "أبناء النور وأبناء الظلمة" *The Children of Light and the Children of Darkness* (١٩٤٤)، "مفارقات التاريخ الأمريكي" *The Irony of American History* (١٩٥٢).

وكان نيبور لاهوتيًا بصفة عَرَضِيَّة كلما اقتضت الحاجة، مثل القديس أوغسطينوس ومارتين لوتر، فهو يقول إنه لم يكتب بطريقة منهجية بل ردًا على القضايا المُلِحَّة آنذاك كلما ظهرت. فبينما كان يعمل راعيًا في

ديترويت، كان مهتمًا بمسائل مثل دخول أمريكا في الحرب العالمية الأولى، والعنصرية، ونهوض المنظمة الأخوية كوكلكس كلان، والممارسات العمالية الاستغلالية التي تتبعها شركة سيارات تيتان هنري فورد Titan Henry Ford.

إلا أنه في كلية الاتحاد اللاهوتية أَلَفَ نيبور كتاب "الإنسان الأخلاقي والمجتمع للأخلاقي" الذي جلب له شهرة على مستوى بلاده. والكتاب عبارة عن تقييم للإنجيل الاجتماعي. وكان نقد نيبور لما تميزت به هذه الحركة من سذاجة ليبرالية، ولجؤوه الواقعي إلى استخدام القوة لمحاربة الشر الاجتماعي بمثابة صدمة كهربائية سَرَتْ في جسد الكنيسة البروتستانتية الأمريكية. وقد كتب سابلا أن كتاب "الإنسان الأخلاقي" غيَّر وجه الخطاب اللاهوتي في أمريكا". وهذا ما يتفق فيه كورنل وسنت، حيث إنه أشاد به باعتباره "أهم كتاب في الأخلاق المسيحية حتى يومنا هذا". وقد ظهر كتاب "الإنسان الأخلاقي" في وقت حرج في التاريخ الأمريكي، حينما وصل الكساد العظيم إلى أدنى مستوى في ١٩٣٢-١٩٣٣. إذنً. كان تطرّف نيبور منطقيًا في سياقه. ومع هذا استمر تأثيره العميق حتى بعد هذه الفترة على نحو فاق كل التوقعات. ويُعَلِّق سابلا أن كتاب نيبور "ساعد في وضع الأسس للجوانب الرئيسية لحركة الحقوق المدنية". فعندما قرأ مارتن لوتر كينج كتاب "الإنسان الأخلاقي" أترى فهمه لكيفية استخدام اللاعنف والعصيان المدني لإحداث تأثير سياسي.

ربما كان نيبور في أفضل حالاته عندما حطّم المعتقدات التقليدية والنماذج القديمة الراسخة. لكنه على مدار العقدين التاليين انتقل باطراد إلى جناح اليسار المعتدل في السياسة الأمريكية. ويقول سابلا إنه حينما كتب نيبور المجلد الثاني من "طبيعة ومصير الإنسان" عام ١٩٤٣ "كان قد أرسى نفسه باعتباره أكبر لاهوتي في البلاد".<sup>١</sup> واستند كتاب "طبيعة ومصير الإنسان" على محاضرات جيفورد Gifford lectures التي قدّمها نيبور في إندبره، اسكتلندا عام ١٩٣٩. وقد يكون صوت القنابل الألمانية التي انفجرت أثناء إحدى المحاضرات، على بعد بضعة أميال أعطى دعمًا مؤسّمًا لحجة نيبور التي تُثبِت سقوط الطبيعة البشرية الجوهري، وإثمها، وطبيعتها المأساوية. ورغم كل المظاهر الخارجية، استنتج نيبور أن مصير البشرية لن يكون مأساويًا في النهاية بل متساميًا. وبينما ينقد المجتمعات البشرية نقدًا لاذعًا بسبب توجهها الحتمي نحو الفساد في كتاب "الإنسان الأخلاقي"، نجده في "طبيعة ومصير الإنسان"، يؤكد "إمكاناتها الإيجابية في الفضيلة عبر التاريخ".

فقد تحولت قناعات نيبور اللاهوتية بمرور الوقت من تفاعلية الإنجيل الاجتماعي في بداية عمله إلى التشاؤمية في كتابه "الإنسان الأخلاقي" ثم أخيرًا إلى الواقعية المسيحية في كتاب "طبيعة ومصير الإنسان". واستمر في تبني وتطوير هذه النظرة الأخيرة المتوازنة فيما تبقى من حياته المهنية. وفي عام ١٩٤٠ كتب مقالة بعنوان "نهاية للأوهام" "An End to Illusion". أعلن فيها انفصاله عن السلمية والاشتراكية. وعندما دخل مرة أخرى في التيار السياسي السائد، حث على تدخل أمريكا في الحرب العالمية الثانية وساعد في صياغة "الحريرات الأربع" "Four Freedoms" التي أعلنها الرئيس فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt، وهي إعلان للمبادئ

<sup>١</sup>سلسلة محاضرات سنوية في اسكتلندا تأسست بمقتضى وصية آدم لورد جيفورد (المتوفى ١٨٨٧)، وتهدف إلى نشر اللاهوت الطبيعي بمعناه الواسع، أي معرفة الله (المحررة).

الأمريكية صَدَرَ عندما كانت الأمة تقف على أعتاب الحرب العالمية. وفي عام ١٩٤٤ كتب "أبناء النور وأبناء الظلمة"، وهو كتاب دفاعي عن الديمقراطية وسط النضال العالمي ضد الشمولية. ويرى نيبور أن الديمقراطية أفضل من أي بديل (أي النازية والشيوعية) لأنها مبنية على وجهة نظر مسيحية للطبيعة البشرية. إنها تضع المصلحة مقابل المصلحة داخل منظومة من الضوابط والتوازنات تسعى باتضاع إلى "حلول تقريبية لمشاكل غير قابلة للحل" في عالم ساقط لا محالة.

لم تكن واقعية نيبور أبداً "واقعية سياسية" بسيطة افترضت أن الأمم يجب أن تعمل فقط على أساس المصلحة الذاتية والسعي إلى السلطة. ولكنه دعا إلى "الواقعية المسيحية" التي رأت العالم السياسي من منظوره الخاص الذي يقوم على المصلحة الذاتية، وأصر في الوقت نفسه على أن القرارات السياسية يجب أن تأخذ في اعتبارها مُثُل الحب والعدالة. وَخَلَصَ إلى أنه دون هذه المُثُل لن تتجاوز السياسة أبداً استراتيجيات توازن القوى التي لا همَّ لها سوى الإبقاء على الوضع الراهن.

وفي سنوات ما بعد الحرب، مع دخول أمريكا في صراع الحرب الباردة الطويل الأمد، ساعد نيبور في تأسيس منظمة "أميريكون للعمل الديمقراطي" (Americans for Democratic Action (ADA) ، وهي منظمة من القادة السياسيين الديمقراطيين والمفكرين الذين سعوا للحفاظ على "المركز الجبوي" للسياسة الأمريكية ضد أوهام اليسار وقسوة اليمين.

وفي الذكرى الخامسة والعشرين لمجلة "التايم" *Time*، في ٨ مارس/آذار ١٩٤٨، ظَهَرَ نيبور على غلاف المجلة، وهذه علامة مؤكدة على أنه وصل إلى مرتبة اللاهوتي الجماهيري. وقد كان محط سخرة الليبراليين في كثير من الأحيان باعتباره "لاهوتي السلطة الرسمية". إلا أن سابلا يقدم حجة جيدة بأن هذا اللقب يناسب بحق بيلي جراهام Billy Graham أكثر مما يناسب نيبور. فمهما كان، نيبور، وليس جراهام، هو الذي كان موضوع تحقيق مكتب التحقيقات الفدرالي FBI بسبب الاشتباه في القيام بأنشطة هدامة. علاوة على ذلك، جراهام هو الذي تصادق مع الرؤساء بينما كان نيبور يتخذ باستمرار مواقف دقيقة ومعارضة بشأن سياسات الحكومة. فقد أعرب مثلاً عن أسفه لإلقاء قنابل ذرية على هيروشيما وناجازاكي، لكنه أيد في وقت لاحق سياسة الردع النووي للحكومة خلال الحرب الباردة. ويمكن أيضاً رؤية الغموض الذي تنطوي عليه مواقف نيبور من قرارات السياسة الأمريكية في كتابه الأخير العظيم، "مفارقات التاريخ الأمريكي" (١٩٥٢) الذي سعى إلى اختراق الادعاءات الأمريكية بالصلاح والبراءة، مع الحفاظ في الوقت نفسه على ولائه لمثالية أمريكا الرفيعة المستوى.

وقد كتب رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson: "إن الثبات الأحمق غول العقول الضيقة التي يعشقها التوفاه من رجال الدولة والفلاسفة ورجال الدين". لم يكن نيبور أبداً أحمق، فقد عمل على كشف النقاب عن الفلسفة اللاهوتية في السياسة الأمريكية. وعلاوة على هذا، لم يسمح لنفسه أبداً أن يبقى مقيداً بمواقفه السابقة لمجرد الحفاظ على صورته العامة بالثبات على مواقفه. ففي حياته المهنية، انتقل من داعية

للسلام إلى مؤيد للتدخل العسكري، من اشتراكي إلى ديمقراطي تابع لتحالف الصفقة الجديدة New Deal، من مناصر للإنجيل الاجتماعي إلى مسيحي واقعي، من ناقد اليسار المتطرف للحكومة إلى ما يُدعى "لاهوتي السلطة الرسمية".

واعترف نيبور بالغموض الأخلاقي للعالم السياسي، إذ رأى أن الخيارات السياسية غالباً ما تكون بين شَرِّين؛ أحياناً بين شيء شديد البشاعة ورذيلة أقل بشاعة. وقبل كل شيء، سعى إلى رسم مسار متوسط في المجال السياسي بين العاطفية الساذجة والتشاؤم المفرط. وما لا يعرفه عامة الناس اليوم أنه في عام ١٩٩١ أشادت به مجلة "التايم" على أنه "أعظم لاهوتي بروتستانت في أمريكا منذ جوناثان إدواردز Jonathan Edwards". وقد حظي بالإعجاب والإشادة من قبل قادة سياسيين خارجيين عن المؤلف مثل باراك أوباما و جون ماكين John McCain، ومن لاهوتيين متفردين مثل إبراهيم جوشوا هيرشل Abraham Joshua Herschel وفيلسوف الأخلاقيات البروتستانت ستانلي هاورواس. إن الواقعية المسيحية لنيبور مساهمة خالدة في الفكر السياسي، غالباً ما يدَّعمها كلُّ من الليبراليين والمحافظين، المثاليين والواقعيين، المحافظين الجدد neocons والمحافظين السياسيين الدينيين theocons. فرغم أن نيبور مفكر أمريكي نشأ في القرن العشرين في بيئته المحلية، إلا أن تفسيره للسياسة المسيحية تجاوز الزمن والحدود القومية. وإذا لم يكن القارئ قد تلاقى مع هذا اللاهوتي الشامخ الذي عاش في القرن العشرين، فإن دراسة سابلا القصيرة الواضحة قد تكون المكان المناسب للتعرف عليه.

مايكل پاركر Michael Parker

أستاذ تاريخ الكنيسة

كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة